

الفصل السابع

فى السبب فى غلبة الفلاكة والإهمال والإملاق على نوع الإنسان وبيان ذلك

اعلم أن المفلوكية والإهمال والإملاق غالب على جنس البشر والسبب فى أن غالب البشر^(١) يرمقون العيش ترميقاً ويدافعون إخفاق المساعى مدافعة ويتسكعون فى طرق الإملاق أو فوقه بقليل تسكعاً أن السيادة والمجد والثروة والغنى وأشباهها إما مكتسبة وإما موروثه فأما المكتسبة فما سوى الإمارة من المعاش الطبيعى إما تجارة أو فلاحه أو صناعة فالتجارة مفتقرة إلى مادة متسعة ورأس مال كبير يدار فى وجوه الأرباح والتمشير ويوزع على أنواع المتاجر لينجبر كساد بعضها بنفاق الآخر وليستعان بالنفاق على ادخار الكاسد ارتقياً لحوالة الأسواق واستدرااراً للنفق ولكيلا يباع الكاسد فى حال كساده وذهاب ربحه وفساده وأيدى الناس خالية عن الأموال المقنعة القابلة لمثل ذلك غالباً - أيضاً فهى محتاجة إلى بصيرة تامة ودراية واقية وتجربة كاملة ليؤمن بها غش الباعة وخلابتهم وترويج السماسرة كواسدهم ومفتقرة أيضاً إلى فراسة صادقة وحذس صحيح ليضع كل سلعة فى حاق موضعها زبوناً وسوماً وترخياً وإغلاء وحلولاً وتأجيلاً وادخاراً وتعجيلاً ونفوس الناس غالباً ظلمانية حلوها عن العلوم العقلية والأعمال الرياضية فهى بعيدة عن البصيرة - أيضاً فالأيدي الغاصبة الحاطفة مستولية على التجار لمقهوريتهم مع الدولة وحامية الملك وخاصته المخادعين بالاستدانة والأرباح الكاذبة والمواعيد الباطلة والرهون غير المملوكة والالتجاء إلى الإعسارات والحيل الشرعية والاستعانة بشهود

(١) فى القاموس الترميق العمل يعمل به ولا يحسنه يتبلغ به وهو مرمق العيش ومرمقه كمعظم

ومحمر ضيقه اهـ وقوله ويتسكعون أى يذهبون متحيرين لا يدرون أين يأخذون اهـ.

الزور ووكلاء سوء وربما تكرر ذلك على التاجر الماهر فعاقه وأقعدته عن أمثاله حتى أتى على رأس ماله - وأما الفلاحة فعوارضها السماوية أكثر من أن تعد من البرد والسهواء المفرطين وانقطاع المطر وكثرته في غير وقته ونزول كبار الحصى والبرد وثقل الثلج وشدة الحر ومجىء الجراد المتشر وكذلك العوارض الأرضية من سوء النبت وسباخة الأرض وخبث طينها ووضع الأشياء متآخرة عن أوانها وعدم استكمالها بحراثتها وشروطها ونبات الأشياء المضرة خلال الأشياء المطلوبة ومن الجرد والفار واليربوع ومن رخص البقول والخضروات وما في معناها مما لا يقبل الادخار مع غلاء بذرها ومن عدم نصيحة المعاونين فيها وخبائثهم واختلاسهم وتفويت الأعمال الكمالية المصلحية وتسليط الظلمة عليهم واستعبادهم وتوسيع شروط مقاسمتهم وفرض الفرائض والتفنن في وجوه الجبايات وأنواع الظلمات وإجائهم إلى بيع زراعاتهم في حال كسادها وعدم رواجها مع ما يختص به أهل البدو من رداءة العيش وخشونته والبعد عن أحوال الحضارة من الرفاهية والترف وموجودية المطالب والتحلى بالعلوم ثم مع ذلك كله ما هم عليه من دخول المهانة في قلوبهم وظهورها في أحوالهم وعلى شمائلهم ونهيك قوله ﷺ: «ما دخلت السكة دار قوم إلا دخلها الذل» - وأما الصناعات فلقلة الماهر الحاذق فيها وعلى الجملة فالصنائع شاغلة لأصحابها عن الدعة والراحة والرفاهية ويطرقتها الكساد كثيرا ونفاقها لا جدوى له ولا يحظى صاحبها بطائل وأصحاب الصنائع باذلون رقمهم وعبوديتهم بأقل قليل للفقير والغنى والمسلم والذمى فهم بمراحل عن الشهامة وعلو الهمة والأنفة - ثم جهات المعاش الثلاثة مفتقرة إلى التعاون والتناصح وقد انقطعوا من كافة البشر أو عامتهم لاتساع موجبات التباغض والتماقت لكثرة مقتضيات التحاسد وحبيلولة كل واحد الآخر عن مراده الناشئة من الكبر والعجب والعداوة وخوف الازدحام على مطلوب واحد. ولفوات بعض

المقاصد بكثرة الشركاء وحب المباهاة والانفراد بالمجد وخبث النفس وفساد جوهرها ونقس إنسانيتها - وأيضاً يقال على وجوه المعاش الثلاث أنه كلما تجدد للإنسان دخل جدد له صرفاً إما للمباهاة والترفع على أمثاله أو إفراطاً في الشهوات وأنهما كافي اللذات أو خوفاً من سوء القالة والأحدوثة بتنقيص ما يقتضيه حاله أو بإكراهه مبعوض لتلك النعمة عليه أو لأن الحالات المتجددة في دخله يلزمها تجدد أمور في صرفه فلا يزال الشخص مفلوكاً مهملاً غير قادر على المكارم - وأيضاً فوجوه المجد والسيادة الكسبية لا تصير دفعة وإنما تكون بالتدريج والترقى ومكابدة تنميتها ومعالجة زوال موانعها مع كثرة الصادين عنها والعوارض العائفة لها أمر عسير بطيء السير فيقضى الإنسان شطر عمره أو معظمه في فلاة وإدبار - هذا حكم وجوه المعاش الطبيعي وأما غير الطبيعي كالاسترزاق بالكيمياء والتنجيم والدلالة وقلم الشهادة لغير المعروف وسائر الأرزاق الهوائية الخطفية الصدفية فهي أرسخ قدمًا في الفلاكة والإدبار لأنها بمنزلة اللقطة والعصور على دفائن الأرض لعدم انتظامها ووفاء محصولها لخمولها فأصحابه لا سيما غير المشهور منهم أئمة الفلاكة وهيولها وينابيعها ومأواها أعاذنا الله من ذلك ومن الاختلاط بأهله آمين - وأما الإمارة فلا ينكر أن مبادئها مشتملة على نصيب وافر من الفلاكة والإدبار وبيانه أن الإمارة لا تتم إلا بالعصية والتغلب والشوكة وفي قمع المعاند والجاحد وتأليف القلوب المتفرقة وتمهيد المسالك والقيام بحقوق لا تحصى كثرة معاناة شدائد ومكابدة مكائد ومشاق وتعريض النفس للهلاك وكبراء الجند مستعبدون مع ملكهم مشغولون به عن أنفسهم مقدمون لمراده على مرادهم ولو سلم أن السلطنة خالية من الفلاكة فهي من القسم الندار والدعوى أن الفلاكة غالبية على نوع الإنسان لا إنها لازمة لكل نوع الإنسان - هذا كله من المكتسب أما الموروث فيطرقة أنواع من الفلاكة منها امتداد أيدي الولاة والحكام إليه - ومنها ذلة

اليتيم وخضوعه وفقده نصيحة أبيه - ومنها سهولة صرف ماله عليه لعدم
تحمله مشاق جمعه وتجشمه نصب الحبائل فى تحصيله فيسرع فيه بالسرف
والتبذير والسفه لعدم حنكته وبصره بعواقب الأمور ويعود يتكفف الناس -
ومنها عجزه لعدم مهارته ودرسته عن الوفاء بمقاصد ماله والقيام بشروط تنميته
وتميره فيذوب قليلا قليلا إلى أن يضمحل ويتلاشى ولا يحصل منه إلا على
الملامة والتعبير والندم - ومنها إنكار المنكرين كونه فى رتبة مورثه ومستحقا لما
كا يعاون به مورثه ويساعد عليه فلا يؤمنون على دعائه ولا يساعفونه على
قصده ولا يسرون معه سيرة مورثه فيقع من ذلك فى العناء العظيم والداء
العقيم وبهذا التقرير يعلم أن الفلاكة غالبه على نوع الإنسان وارثا كان أو
كاسبا والله أعلم.